المجلة التاريخية المصرية ٥٨ (ديسمبر ٢٠٢٤) ٤٣٧-٤٦٤

إشكالية الهوية الوطنية عند المؤرخين المصريين في العصر الإسلامي: المقريزي أنموذجا (رؤية تاريخية)

The Problem of National Identity Among Egyptian Historians in the Islamic era: Al-Maqrizi as Amodel (Historical Vision)

د. حسن حافظ(•)

"التاريخ هو مسكن الإنسان ومنبت هويته المتعددة"(١)

عبد الكبير الخطيبي؛ عالم اجتماع مغربي

ملخص

تتميز المدرسة المصرية التاريخية في العصور الوسطى -لا سيما في العصر المملوكي- بمعالم واضحة تُظهر شخصيتها بالمقارنة مع غيرها من مدارس الكتابة التاريخية في العالم الإسلامي، واستطاعت المدرسة المصرية أن تحجز لنفسها مكانة واضحة في عدة مجالات أبدع فيها المؤرخون المصريون، ومن الملاحظ أن معظم مناحي الكتابة التاريخية التي برع فيها المؤرخون المصريون كانت تؤكد على الخصوصية المصرية وتندرج في إطار الكتابة الإقليمية، وتنحاز لما يمكن وصفه بـ "الشعور المبكر بالوطنية"، فيتضح لنا ظهور هوية مصرية إقليمية من خلال المصادر

(•) حسن حافظ- باحث دكتوراه -كلية الآداب -جامعة القاهرة.

(١) عبد الكريم الخطيبي، النقد المزدوج، ترجمة محمد برادة وآخرين، بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص١٦.

في العصور الإسلامية. ونستطيع القول إن هناك سردية تاريخية عن مصر في العصور الإسلامية تبناها المؤرخون المصريون الذين عملوا على تكرارها والإضافة إليها بالعديد من الأدلة التي تؤكد هذه الهوية الوطنية لمصر والتي تفصلها وتميزها عن غيرها من أقاليم العالم الإسلامي.

Abstract

The historical Egyptian school during the Middle Ages—particularly during the Mamluk era—stands out with distinctive characteristics that underscore its unique identity compared to other schools of historical writing in the Islamic world. The Egyptian school successfully established a prominent position in several fields where Egyptian historians demonstrated exceptional skill. Remarkably, many aspects of historical writing in which Egyptian historians excelled emphasized Egypt's distinctiveness and adhered to a framework of regional historiography. This focus reflects what can be described as an "early sense of nationalism," manifesting a distinctly regional Egyptian identity as evidenced in sources from the Islamic periods. It is plausible to argue that Egyptian historians developed a historical narrative specific to Egypt during the Islamic eras. These historians systematically reinforced and expanded this narrative, presenting substantial evidence to affirm Egypt’s national identity, which set it apart from other regions within the Islamic world.

يتميز التاريخ بدور أساسي في صناعة الهوية الخاصة بأي أمة، هذا الدور الذي يظهر عند النخب بشكل أساسي وخصوصا عند من يكتب التاريخ، وإذا عدنا إلى العصور ما قبل الحديثة، سنجد أنه هناك تصورات أنتجها مؤرخون مصريون تعكس نزعة قومية وانحيازا للهوية المصرية، مع التأكيد على أن مفهوم الهوية وقتذاك كان يندرج تحت مظلة أكبر عن الهوية الإسلامية، ويكشف تتبع مسار الكتابات التاريخية في مصر الإسلامية على مدار سبعة قرون عن إحساس عميق بالشخصية المصرية، وتفردها الإقليمي، وغلبة التأريخ لها في كتابات مؤرخيها على ما عداها من الأقاليم الإسلامية الأخرى، ما يؤكد وجود نوع من أنواع الذاتية في الكتابة عن تاريخ مصر، وتزامن ذلك مع تطور مكانة مصر في المجموع الإسلامي من إقليم مهم إلى أحد المراكز الأساسية في قيادة العالم الإسلامي، ما خلق حالة من التنافس مع مدارس أساسية في الكتابة التاريخية العربية سواء في العراق أو الشام، لكن لم يمنع ذلك من التأثر بهاتين المدرستين أو التأثير فيهما.

وتتميز المدرسة المصرية التاريخية في العصور الوسطى -لا سيما في العصر المملوكي- بمعالم واضحة تُظهر شخصيتها بالمقارنة مع غيرها من مدارس الكتابة التاريخية في العالم الإسلامي؛ وتتضح أبعاد هذه المدرسة خاصة عند مقارنتها مع مدرستي العراق وبلاد الشام، اللتان تشتركان مع المدرسة المصرية في الاهتمام بالتأريخ لأحداث ذات تأثير مباشر على الأقاليم الثلاثة، نظرًا للقرب المكاني الذي حقق إمكانية التأثير المتبادل في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين هذه الأقاليم، ومن أهم هذه الأحداث؛ الحروب الصليبية، والهجوم الكاسح للمغول، فضلا عن التنازع على احتكار ممارسة النفوذ فيما بين حكام أقاليم العراق والشام ومصر على زعامة العالم الإسلامي.

وتفوقت مدرسة العراق والجزيرة والشام على المدرسة المصرية في عدة مجالات للكتابة التاريخية، خصوصًا في فن التراجم والتاريخ العام[١]، لكن المدرسة المصرية استطاعت أن تحجز لنفسها مكانة واضحة في عدة مجالات أبدع فيها المؤرخون المصريون[٢]، ومن الملاحظ أن معظم مناحي الكتابة التاريخية التي برع فيها المؤرخون المصريون كانت تؤكد على الخصوصية المصرية وتندرج في إطار الكتابة الإقليمية، وتنحاز لما يمكن وصفه بـ "الشعور المبكر بالوطنية"، إذ يذهب هآرمان إلى ظهور هوية مصرية إقليمية وحتى وطنية من خلال المصادر في العصور الوسطى[٣] .

ونستطيع القول إن هناك سردية تاريخية عن مصر في العصور الإسلامية تبنتها قبيلة المؤرخين المصريين الذين عملوا على تكرارها والإضافة إليها بالعديد من الأدلة التي تؤكد هذه الهوية الوطنية لمصر والتي تفصلها وتميزها عن غيرها من أقاليم العالم الإسلامي. فالمؤرخون عندما يكتبون تاريخ مصر يعملون على رسم الذاكرة الجمعية للمصريين أو على الأقل للنخب المتعلمة والتي ستتلقى ما يكتبه المؤرخون وتستخدمه في تمييز نفسها عن بقية الأقاليم والشعوب في عالم المسلمين،

---

(١) انظر مثلا أعمال "الكامل في التاريخ" لابن الأثير الموصلي، وهو في التاريخ العام، و"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان الدمشقي، و"الوافي بالوفيات" لابن أيبك الصفدي، وكلاهما في التراجم.

(٢) تناولت أوجه الريادة للمؤرخين المصريين وفنون الكتابة التاريخية التي تميز فيها المؤرخون المصريون: حسن حافظ: "نزعة الهوية عند المؤرخين المصريين في العصور الوسطى؛ ضمن كتاب (هوية مصر: الأبعاد والتحولات)؛ تحرير ناصر أحمد إبراهيم؛ القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٢٣)؛ ص ٣٤١- ٣٧٠.

(3) Ulrich Haarmann:"Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt", Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 43, no.1 (1980):55.

أي أن عملية كتابة التاريخ هنا تحولت إلى مكون أساسي في التعبير عن نزعة لهوية مصرية.

والملاحظ أن الاهتمام بالتاريخ المصري سبق الاستقلال السياسي عن دولة الخلافة، فبواعث التأريخ لمصر كانت ذاتية وإن تنامت بعد ذلك مع الاستقلال السياسي، فالمتتبع لكتابات المؤرخين المصريين في العصور الوسطى يرى هذا الشعور القوي بالهوية المصرية وتفردها، وهو شعور قديم يسبق المكانة المرموقة التي حازتها مصر في العالم فترة حكم المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، فالمؤرخون الذين جاءوا قبل هذه الدولة عرفوا الفخر بمصر والافتخار بعجائبها، في إطار التفاخر والمنافسة العلمية التي ظهرت واشتدت بين أقاليم العالم الإسلامي، وما استتبع ذلك من تنافس بين علماء كل إقليم وتحزبهم له، في وقت لم تكن المدرسة المصرية في العلوم الدينية صاحبة السبق إذ جاءت بعد مدارس العراق والشام، فضلا عن تبعية مصر السياسية لدولة الخلافة في دمشق ثم بغداد، قبل أن تعرف الاستقلال النسبي مع الطولونيين والإخشيديين وتناطح السلطة المركزية، ثم تحولها إلى مقر خلافة مترامية الأطراف مع الفاطميين، وقد تكون هذه العوامل من أسباب هذا الشعور المكثف بالهوية في كتابات المؤرخين المصريين.

المؤرخون والهوية:

يعد مصطلح الهوية **(Identity)**من أصعب المصطلحات، إذ يتميز بكثرة التعريفات[١]، لكن سنأخذ هنا بتعريف الدكتور نديم البيطار لها، إذ يقول: "هوية الأمة هي هوية تاريخية، والتاريخ هو الذي يشكلها"[٢]. ويوضح عفيفي البوني هذا

[١] حسن حنفي، الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة (٢٠١٢)، ص ١٦.

[٢] نديم البيطار، حدود الهوية القومية: نقد عام، بيروت، دار الوحدة (١٩٨٢)، ص ١٩.

التعريف قائلا: "يمكن القول حول مفهوم الهوية بأنها الرمز، أو العامل المشترك الذي يجمع عليه كل أفراد الأمة، أية أمة، من حيث الانتساب والتعلق والولاء والاعتزاز. وهذا الانتساب والتعلق والولاء والاعتزاز يكتسب قداسته لأنه ليس موضع شك من طرف أي فرد، وهي هوية القاسم المشترك بين الجميع، استنادا إلى الخلفية الثقافية والتاريخية الواحدة. ومما يجعل هذا الاعتزاز بالهوية أمرًا مشروعًا أيضًا، وحدة المصالح والمستقبل الواحد. بهذا المعنى، الهوية هي الذات الجماعية لأفراد الأمة كلهم، والمس بها يمس كيان الامة كله، ويمس في الوقت نفسه كل فرد منها على السواء"[١]. وتعني الهوية الجماعية هنا بناء تصور عن البلد والإقليم الذي يعيش فيه أصحاب هذه الهوية، وهو ما يجر بالتبعية عملية مقارنة مع الآخر، وهو ما سنجده عند المؤرخين المصريين الذين ركزوا على الفروقات التي تميز مصر من ناحية وتثبت الاختلاف عن الأقاليم الأخرى.

ويرى البوني "إن العامل الأساسي في تحديد هوية أمة من الأمم هو خلفيتها الثقافية والتاريخية... والتجارب المختلفة والأوضاع الخاصة التي تمر بها الأمة هي التي تصهر وتصقل هوية أفرادها"[٢]. من هذه التعريفات نصل إلى أن الهوية القومية أو الوطنية ليست أزلية ويمكن أن نقول عنها إنها نسبية، لأنها خلاصة تجارب تاريخية لثقافة وحضارة أمة من الأمم، وإذا طبقنا هذا الكلام على مصر، فسنجد أن هناك هوية مصرية متغيرة تقبل التنوع والتعدد فلا يتصور أن جميع المصريين كانت تجمعهم صورة ذهنية واحدة عن تصور هويتهم كمصريين في أي لحظة تاريخية، فـ "تعدد الهويات أمر طبيعي في كل المجتمعات بقدر تعدد السمات

---

[١] في الهوية القومية العربية، ضمن كتاب الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية (٢٠١٣)، ص ٢٣.

[٢] المرجع نفسه، ص ٢٤.

والخصائص الاجتماعية والفكرية"[١]، لكنهم في كل مرحلة تاريخية كونوا -أو كون الجزء الأكبر منهم أو الأكثر وعيا- هوية معبرة عنهم.

ونرى أن المؤرخين المصريين في العصور الوسطى، كونوا نوعا من أنواع الهوية عبر بناء سردية تاريخية تقوم على فهم خصوصية مصر في إطار إسلامي جامع، إذ نظروا على الدوام بحسب ما سنشرح لاحقا إلى مصر باعتبارها متميزة داخل الإطار الإسلامي، وقد استخدموا العديد من الأدوات لإثبات هذا التميز وتفاخروا به، بل وعملوا على عقد مقارنات مع الأقاليم الأخرى لإثبات تفوق الهوية المصرية واستخدموا في ذلك الخلفية الثقافية والتاريخية لمصر بما في ذلك تاريخها ما قبل الإسلام، وهي نظرة متقدمة جدا بمعايير ذلك الزمن.

والمدهش أن حدود مصر الجغرافية التي يتكلم عنها المؤرخون المصريون تكاد تكون هي نفسها التي تميز الدولة المصرية في يوم الناس هذا، وكأن هذا الإقليم عرف وحدة جيوسياسية شبه ثابتة ساعدت في تمييزه وتحديد هويته، إذ يقول المؤرخ المصري المقريزي (ت **٨٤٥**هـ/ **١٤٤٢**م): "فاعلم أن أرض مصر لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية -ويزعم قوم من برقة في البر- حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة في حد أسوان... حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد على بحر القلزم، ويجاوز القلزم إلى طور سيناء، ويعطف على تيه بني إسرائيل مارا إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع الساحل مارًا على بحر الروم إلى الإسكندرية، ويتصل بالحد الذي قدمت ذكره من نواحي برقة"[٢].

---

[١] علي الدين هلال، تعقيب **٣** على ورقة غسان سلامة، في كتاب (جامعة الدول العربية: الواقع والطموح)، بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية (**١٩٨٣**)، ص **٨١٥**.

[٢] المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، **٤** أجزاء، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن، دار الفرقان، **٢٠٠٢-٢٠٠٤**، جـ١: **٣٧**.

عوامل تعزيز الهوية المصرية:

ربما يرجع الشعور بالهوية المختلفة عند المؤرخين المصريين في العصر الإسلامي إلى عدة عوامل عززت من هذا الشعور وصنعته، وسنركز هنا على الاحتفاء بالآثار المصرية القديمة، والاحتفاء القرآني بمصر، فهذان العاملان هما في رأيي الأساس القوي الذي بني عليه الشعور القوي بالهوية المصرية في العصور الإسلامية وعبر عنه المؤرخون المصريون في كتاباتهم، ما أنتج قاعدة صلبة لشعور الهوية عند المؤرخين المصريين الذين بنوا على هذه الحقائق.

ويمكن القول إن مصر عرفت السياحة قبل العصر الحديث، فالرحالة والجغرافيون المسلمون تحدثوا بفخر عن مصر التي تحتضن لأعظم الآثار القديمة في العالم الإسلامي وقتذاك، بصورة تلعب بخيال من يراها، وما يثيره ذلك من إحساس بالفخر، ما جعل زيارة هذه المعالم ركنا أساسيا من أركان زيارة مصر، خاصة زيارة الهرمين "اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير في ملك مسلم ولا كافر"[١]، ويصف صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) في كتابه (التعريف بطبقات الأمم)، مكانة الآثار المصرية القديمة في المخيلة الإسلامية قائلاً: "وهي آثار أجمع أهل الأرض أنه لا مثيل لها في إقليم من الأقاليم.[٢]"

وتحدث رحالة وجغرافيون زاروا مصر عن آثارها القديمة بمزيد من الخشوع والإعجاب المستحق، حتى صارت "من العجائب المذكورة على مر الدهور،

---

[١] ابن حوقل، صورة الأرض، بريل ١٩٣٩، ص١٣٥.

[٢] القاضي صاعد الأندلسي، التعريف بطبقات الأمم، تحقيق غلام رضا جمشيد ثراداوال، طهران، مركز نشر التراث المخطوط (دفتر نشر ميراث مكتوب)، طبعة أولى ١٣٧٤هـ، ص ١٩٤.

وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها"[١]، بحسب الرحالة المغربي الأشهر ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، بينما قال عنها الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م): "...الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء... لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك .[٢]"

ولا شك أن وجود الأهرامات ومعها الآثار الفرعونية الضخمة المنتشرة في طول البلاد وعرضها، قد أثارت المخيلة الإسلامية وعززت من مكانة مصر في الوجدان الإسلامي، وهو ما عبر عنه بذكاء الرحالة عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، قائلاً: "أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في مثلها... فمن ذلك الأهرام... فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هي غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم.[٣]"

وأخذت عظمة الأهرامات بلباب الجغرافي والرحالة ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) فنراه يقول: "وقد رأيت الهرمين وقلت لمن كان في صحبتي غير مرّة إن الذي يتصوّر في ذهني أنه لو اجتمع كل من بأرض مصر من أولها إلى آخرها على سعتها وكثرة أهلها وصمدوا بأنفسهم عشر سنين مجتهدين لما أمكنهم

---

[١] ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية (١٩٩٧)، جـ١، ص ٢٠٩.

[٢] ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر ١٩٩٢، ص٥٠.

[٣] الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨، ص ٨٩-٩١.

أن يعملوا مثل الهرمين، وما سمعت بشيء تعظم عمارته فجئته إلا ورأيته دون صفته إلا الهرمين فإن رؤيتهما أعظم من صفتهما.[١]"

هذه الروح التي يتحدث بها رحال وجغرافيون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي عن الآثار المصرية القديمة، عززت من شعور الهوية عند المؤرخين المصريين، الذين خصصوا مادة أساسية في معظم كتبهم للحديث عن تاريخ مصر ما قبل الإسلام، حتى أنهم قالوا إن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة، منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات، وبمصر وحدها عشرون أعجوبة، وهي كلها من الآثار المصرية القديمة[٢]. ويصل الفخر بمصر قمته بالقول إن "ليس من بلد فيه شيء غريب إلا وفي مصر مثله أو شبيه به. ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التي ليست في بلد سواها"[٣]. وقد خصص المقريزي نحو ثلاثين صفحة لجمع كل ما قيل في الأهرامات[٤]، بينما ألف الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، وهو مؤرخ مصري، أهم كتاب خصص للحديث عن الأهرام قبل العصر الحديث، وهو كتاب (أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام)[٥].

---

[١] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٨ أجزاء، بيروت، دار صادر، الطبعة الثامنة ٢٠١٠، جـ ٥، ص ٤٠٠-٤٠١.

[٢] المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٨١-٨٢، وابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، دار الكتب المصرية (٢٠٠٨م)، جـ١: ص١٧، وهما ينقلان هذا الخبر عن المؤرخ الفاطمي القضاعي، بما يكشف عن سردية تاريخية تناقلها المؤرخون المصريون قرونا طويلة.

[٣] المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٨٥.

[٤] المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٠٠- ٣٣١.

[٥] الشريف محمد الإدريسي، أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام، تحقيق ألريش هارمان، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٩١.

ونجد أن الكثير من المؤرخين المصريين افتتحوا كتبهم التاريخية بالحديث عن تاريخ مصر قبل الإسلام، وعلى الرغم مما شاب هذا السرد من غلبة الأسطوري على التاريخي بسبب انعدام القدرة على قراءة الخط الهيروغليفي[١]، وهو تقليد في الكتابة التاريخية المصرية بدءا مع أول مؤرخ مصري تصل لنا كتاباته وهو ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)، صاحب كتاب (فتوح مصر وأخبارها)، مرورًا بالمؤرخ ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)[٢]، وصولا إلى آخر مؤرخ معاصر لدولة سلاطين المماليك وهو ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)[٣].

إلا أننا نجد هنا ملمحا مهما وهو احترام التاريخ المصري القديم والافتخار به، والاعتراف به والإقرار بعظمته وعظمة آثاره حتى ولو لم يتم التعرف على تفاصيله بشكل كامل، فتاريخ مصر لا يبدأ منذ لحظة الفتح العربي، بل هو تاريخ موغل في القدم ويسبق واقعة الفتح العربي بقرون طويلة، وهو أمر أكد عليه كل المؤرخين المصريين الذين اعترفوا لتاريخ مصر بالتقدير والاحترام الكامل، وتحدثوا عنه بلهجة فخر واعتزاز، بل وجعلوه مرتكزا في حديثهم عن تفضيل مصر وتعزيز مكانتها بين الأقاليم المختلفة في العالم الإسلامي[٤]. وهو ما نجده بوضوح في عمل

---

[١] ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارلس توري، نيوهافن ١٩٢٢م، وأعيد طبعه بالتصوير وصدرت في القاهرة عن مكتبة مدبولي ١٩٩٩م، ص ٧. ونلاحظ عنده أنه يمزج ما بين التاريخ المصري القديم والتاريخ لمصر من وجهة نظر توراتية والتي لا تتعارض مع الرواية الإسلامية في ما يخص أنباء الخط الإبراهيمي وعلاقتهم بمصر.

[٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦، جـ١، ص ٧ وما بعدها.

[٣] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١: ص ٦٤ وما بعدها.

[٤] على سبيل المثال: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٧- ٤٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٣٦- ٦١، ويلاحظ هنا أن ابن تغري بردي يورد الكثير من نصوص وأقوال مؤرخين مصريين من فترات قديمة تعود للقرن الثاني الهجري حتى القرن التاسع الهجري، فهو بذلك يقدم حشدا لآراء الكثير من المؤرخين المصريين في تاريخ مصر القديم يكاد يكون محل اتفاق في ما بينهم.

الشريف الإدريسي "أنوار علوي الأجرام" الذي يستشهد بالآراء التي أجمع عليها العلماء بأن الأهرامات هي "أعجب ما على بسيط الأرض من البناء المرفوع"[١]، وهو يرى أن أرض مصر مقدسة لأسباب عدة يجملها في قوله: "فما أسعد أرض الأهرام من أرض لِمَا تشرفت به من تقبيل مواطئ أقدام أولئك الأنبياء الكرام، وحظيت به من مصافحة صفيحها لسنابك خيل هؤلاء المجاهدين من أصحاب سيد الأنام. وكم سجد من جميعهم لله سبحانه في عراصها من جبين، وسمع لصداها بمحاكاة أصواتهم المرتفعة بالتهليل والتقديس من صوت حنين... وعلى ذكر تقديس هذه الأرض ذكر لي الشريف النصير بن عيسى الحسني أنه وجد فيما وجده منقولا من أخبارها... أنها كانت تُعرف بالأرض المقدسة عند أوائلهم [٢]."

العامل الثاني لتعزيز الهوية المصرية عند المؤرخين يتمثل في الفخر بالإقليم المصري عبر القرآن الكريم نفسه، النص المؤسس للإسلام، وما يرتبط به من أحاديث نبوية وأقوال لكبار الصحابة، فمصر هي أكثر البلدان ذكرًا في القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين جميعًا، وترددت عبارة في المصادر الإسلامية مضمونها أنه "لم يذكر الله جلّ وعزّ شيئًا من البلدان باسمه في القرآن ما ذكر مصر"[٣]، والآيات القرآنية تتحدث عنها بما يوحي بعظمة ملك آل فرعون، وهو ما تجد صداه على أرض الواقع من آثار فرعونية كانت تغطي معظم مدن وادي النيل، وفي مقدمتها الأهرامات الشامخة في صحراء الجيزة، ولم يكن غريبًا أن تستند المدرسة المصرية التاريخية على النصوص القرآنية والأحاديث المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في التركيز على مكانة مصر واستمداد أهلها الفخر من نصوص دينية كان لها الغلبة حينذاك، لذلك تضمنت الكثير من المؤلفات التاريخية

---

[١] أنوار علوي الأنوار، ص ١٣.

[٢] الشريف الإدريسي، أنوار علوي الأجرام، ص ٢٧- ٢٨.

[٣] ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٨٨٥، ص ٥٨.

عن مصر في فصولها الافتتاحية آيات قرآنية وأحاديث نبوية تتحدث عن مكانة مصر وشعبها، وهو ما نجده بوضوح في كتب الفضائل؛ وأشهر ما يمثلها هو كتاب "فضائل مصر وأخبارها"، لابن زولاق (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م)[١].

الدعم القرآني لمكانة مصر في المخيلة الإسلامية، لم يتوقف عند المؤرخين المصريين بل تعداهم إلى الجغرافيين والرحالة المسلمين، الذين تحدثوا عن مكانة مصر القرآنية؛ مثلما فعل المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)[٢]، وياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٥م)[٣]، والمقدسي البشاري (٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) ، في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، والذي افتتح الفصل الذي خصصه لمصر فيه بقوله: "هذا هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى"[٤]، استنادًا إلى ما جاء في القرآن الكريم حكاية عن فرعون: {أليس لي مُلكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي} [الزخرف: ٥١].

وقد أوجز الدكتور محمد كامل حسين الأسباب المتعددة التي دفعت المسلمين للاهتمام بتاريخ مصر، ونرى أنها كانت سببا أيضًا في تكثيف الشعور بالهوية التاريخية المصرية، إذ يقول: "وقد عنى المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر، لأنها ذكرت كثيرًا في القرآن الكريم، كما روى عن النبي أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبي كانت مصرية، وأن بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن في مصر، عرف المسلمون هذا كله، ورأوا بعد الفتح أشياء لم

---

[١] ابن زولاق، فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة- مكتبة الخانجي، ١٩٩٩.

[٢] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٧ أجزاء، بيروت، طبعة شارل بلا، ٢: ٦٥ و٦٧.

[٣] ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٥، ص ١٣٧.

[٤] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٩٣.

يروا مثلها؛ كالهرم والمقابر الأخرى التي عرفت بمصر باسم (البرابي)، وكان عند العرب هذا القصص الذي يحدثهم عن القدماء فشغفوا بالتاريخ وروايته، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير من القصص الخيالية... ووضعوا من عندهم أخبارًا بعيدة كل البعد عن الصحة، وكانت هذه الأخبار كلها أساسًا لكتب التاريخ التي ظهرت بمصر.[١]"

فالشعور بالخصوصية المصرية واضح منذ إرهاصات المدرسة التاريخية المصرية، فذاك سعيد بن كثير بن عفير المتوفى سنة **٢٢٦** هجريًا، وهو إخباري مصري ويمكن عده أول مؤرخ مصري، ومن أساتذة عبد الرحمن بن عبد الحكم، يدافع عن مصر أمام الخليفة العباسي المأمون (حكم **١٩٨- ٢١٨**هـ/ **٨١٣-٨٣٣**م) خلال زيارة الأخير لها، ويروي ابن عفير ما حدث قائلاً: "كنت بحضرة المأمون بمصر حين قال وهو في قبة الهواء: لعن الله فرعون حين يقول {أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي} فلو رأى العراق! فقلت: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا، فإن الله عز وجل يقول: {ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته؟ فقال: ما قصّرت يا سعيد. فقلت: يا أمير المؤمنين لقد بلغنا أن أرضًا لم تكن أعظم من أرض مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها.[٢]"

هذا الشعور القوي بالتفرد المصري نقله ابن عفير إلى تلميذه المباشر ابن عبد الحكم، الذي افتتح كتابه (فتوح مصر وأخبارها)[٣]، بالحديث عن فضائل مصر وتاريخها القديم من منظور أسطوري مدعم بنصوص قرآنية. وكتابه من أوائل

---

[١] في أدب مصر الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص **٧٤-٧٥**.

[٢] ابن زولاق، فضائل مصر، ص **٥٤**.

[٣] ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص **٤**.

الكتب التي تؤرخ لإقليم من أقاليم الدولة الإسلامية بشكل منفرد، فهنا نلاحظ أن الوعي بالذات في العصور الإسلامية الأولى في مصر انحصر في الوعي بخصوصية الإقليم المصري وتفرده عن غيره من الأقاليم المنضوية تحت مظلة الخلافة الإسلامية.

تفضيل مصر على غيرها من البلدان:

تزخر كتب التاريخ المصري في العصور الوسطى بأقسام عن فضائل الديار المصرية ومقارنتها بغيرها من الأقاليم الإسلامية بصورة تنضح بالمصرية[١]، ويركز المؤرخون المصريون في هذه النوعية من الكتب على ذكر فضائل مصر بشكل واضح جدًا منذ السُّنة التي استنها ابن عبد الحكم، والذي مارس من خلاله ابن عبد الحكم هيمنة واضحة على أنماط الكتابة التاريخية في مصر الإسلامية طوال سبعة قرون تالية، فنجد صدى حديثه عن فضائل مصر وتاريخها القديم، واضحًا في مؤلفات المؤرخين المصريين بما يعكس ما يمكن وصفه بالسردية التاريخية التي تعكس شعورًا مكثفًا بالهوية، وهي السردية الممتدة على مدار سبعة قرون تقريبا.

وتحولت المادة التي جمعها ابن عبد الحكم عن فضائل مصر استنادا إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأحاديث للصحابة وقصص إسرائيلية، إلى ركن ثابت في كتب المؤرخين المصريين الذين واصلوا الإضافة إلى هذه المادة التي أخذت في التضخم والاتساع مع توالي الأعوام، ووجدنا أن بعض المؤرخين خصصوا كتابا

---

[١] بدأ هذا الأمر بشكل واضح مع المؤرخ المصري ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م) في كتابه (فتوح مصر وأخبارها)، وهو تقليد استمر حتى نهاية عصر المماليك في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهي مادة ذات طابع أسطوري في معظمها، راجع عنها عمرو عبد العزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين، القاهرة، دار عين ٢٠١١م؛ ص ٧١-٨٩.

مستقلا للحديث عن فضائل مصر مثلما فعل ابن زولاق في كتابه (فضائل مصر وأخبارها وخواصها)[١]، وابن الكندي (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) في كتابه (فضائل مصر المحروسة)[٢]، وأبو حامد المقدسي (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م) في كتابه (الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة.[٣](

ووجدنا غالبية المؤرخين المصريين يفتتحون كتبهم بفصل خاص عن فضائل مصر كما فعل ابن عبد الحكم من قبل، مثلما نجد عند ابن الزيات (ت ٨١٤هـ/١٤١٢م) في كتابه (الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة)[٤]، والمقريزي في (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)، وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)[٥]، والسيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) في (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)[٦]، وابن إياس في (بدائع الزهور في وقائع الدهور). أو أن يتحدث المؤلف عن فضائل مصر ضمن مواضيع كتابه بشكل مستفيض مقارنة ببقية الأقاليم الإسلامية مثلما نجد عند ابن أيبك الدواداري في كتابه[٧]

---

[١] تشغل الصفحات التي خصصها ابن زولاق لفضائل مصر وتاريخها قبل الإسلام نحو ٢٥ صفحة من ١٠٧ صفحة للكتاب بحسب تحقيق علي محمد عمر.

[٢] ابن الكندي، فضائل مصر المحروسة، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٩٧م.

[٣] أبو حامد المقدسي، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، (نشر خطأ منسوبا لابن ظهيرة)، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة، مركز تحقيق التراث ١٩٦٩م.

[٤] ابن الزيات، الكواكب السَّيَّارة في ترتيب الزِّيارة، نشره أحمد تيمور باشا، بولاق ١٣٢٥هـ.

[٥] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١: ص ٢٧ وما بعدها.

[٦] السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٩٨، جـ١: ص ٥ وما بعدها.

[٧] ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الأول تحقيق بيرند راتكه، القاهرة، المعهد الألماني للآثار (١٩٨٢)، ص ٢١٦- ٢٢٦، والجزء الثاني، تحقيق إدوارد بدين (١٩٩٤م)، ص ٢١٢-٢١٧ وص ٢٢٦-٢٣٠.

والنويري في موسوعته (نهاية الأرب في فنون الأدب)[١].

ونجد صورة معبرة عن هذا الفن -القائم على أدب المفاخرات- في كتاب أبي حامد المقدسي (الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة)، والذي يعترف أنه ألفه في إطار المفاضلة بين مصر والشام قائلاً: "فشرعت في جمع فصول ملخصة مفيدة...أذكر فيها ما اشتمل عليه إقليم مصر من مبتدأ أمره، وأسماء ملوكه، وفضائله وعجائبه، ومحاسنه وغرائبه، وما اختص به هو وأهله عن سائر بلاد الله تعالى العامرة، ومحاسن مصر والقاهرة بالخصوص، وترجيحها على غيرها بالنصوص... وكل ذلك إن شاء الله تعالى مع العدل والإنصاف، والخلو من التعصب والاعتساف، فإن لي بالإقليمين أصلاً أصيلاً، وعرقًا صالحًا نبيلاً. لأن مولدي ومنشئ قريب من البلاد المقدسة من أرض الشام، وأصول آبائي القديمة من أرض مصر والشام، وإني وإن كنت إلى الأخيرة أقرب فالرجوع إلى الحق أوجب، وذكر الفضائل للنفوس السليمة أطلب"[٢]، فالمؤرخ هنا يعلن تفضيله لمصر على الشام على الرغم من أصوله الشامية .

إعادة صياغة التاريخ لصالح الهوية المصرية:

المنظور المصري في كتابة التاريخ نجد صداه بوضوح عند ابن أيبك الدواداري في كتابه (كنز الدرر وجامع الغرر)، إذ قرر أن يسجل سنوات فيضان النيل من أول عام للهجرة في كامل موسوعته التاريخية التي تعالج في بعض أجزائها تواريخ الدولة الأموية والعباسية، إذ يقول: "ثم ابتدأت من أول عام الهجرة سياقة النيل...

---

[١] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزءا، القاهرة، دار الكتب المصرية (٢٠٠٧م)، جـ١: ص ٣٤٤-٣٥٨.

[٢] أبو حامد المقدسي، الفضائل الباهرة، ص ٢.

وقدمت قبل كل حادث من حوادث ذلك العام، ما يليق من الكلام، وذلك ما استقر عليه القاع من الماء القديمة، وما انتهت إليه الزيادة .[١]"

ونجد مستوى أعلى عند ابن تغري بردي الذي يسير على نفس درب ابن أيبك في ذكر أحوال الفيضان في كل سنة في كتابه الحولي، لكن الأهم أنه يقدم لمحة قوية عن الهوية المصرية التي تعيد تخيل التاريخ بحيث تصبح مصر هي مركز الحركة التاريخية للأرض كلها، إذ ينقل عن المؤرخ ابن يونس بإسناده إلى أبي بصرة الغفاري قاله: سلطان مصر سلطان الأرض كلها. ثم يبني ابن تغري بردي حكمه الذي سيصبغ عليه كتابه التاريخي كله بقوله: "ولهذا الخبر الصحيح جعلنا في آخر تراجم ملوك مصر حوادث سائر الأقطار كلها"[٢]. بل أنه ينتصر لمصر على العراق بشكل حاسم عندما كانت الأولى تابعة للثاني زمن الخلافة العباسية بل يواصل تفضيله لمصر قائلا: "وأما يومنا هذا فلا تقاس مصر بالعراق جميعه، بل تزيد محاسنها على جميع أقطار الأرض.[٣]"

هذه الروح لم تنعكس فقط في تصريحات المؤرخين المصريين ولا في تركيزهم على كتابة تاريخ المسلمين مع وضع مصر في مركزه وتفضيلها على سائر أقاليم العالم الإسلامي، بل امتدت لإنتاج فنون من الكتابة التاريخية عرفت بمصر وارتبطت بها، ففضلا عن نمط فضائل البلدان الذي برع فيه المؤرخون المصريون، يُعدّ الاهتمام بالخطط (الطبوغرافيا)؛ وهو نوع من الجغرافية التاريخية الإقليمية، من المميزات الأساسية للكتابة التاريخية في مصر العصور الوسطى، بصورة لا نصادفها في الكتابة التاريخية عن أي إقليم إسلامي آخر، ويرى محمد عبد الله عنان أن الكتابة في الخطط

---

[١] ابن أيبك: كنز الدرر، جـ١: ص ٩.

[٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١: ص٣١.

[٣] المصدر نفسه، جـ١: ص ٤٦.

"فن مستقل من فنون التاريخ، كان لمؤرخي مصر فضل ابتكاره، ثم فضل تقدمه وازدهاره، حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبتًا حافلاً في تراثنا التاريخي.[١]"

ونتفق مع الدكتور أيمن فؤاد سيد في قوله: "إن هذا الفن من الفنون التي اختصت بها مصر الإسلامية وتحديدا العاصمة (الفسطاط- القاهرة)، ونما وتطور بها على مدى تاريخها الطويل، وكان له فيها تاريخ مجيد مهد الطريق إلى الاكتمال الذي بلغه هذا الفن في مؤلف المقريزي الضخم (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) الذي يُعد بلا جدال أكبر ممثل لنمط الخطط"[٢]. بينما يرى الدكتور ناصر الرباط أن وجود تقليد فكري لكتابة الخطط في مصر على مدار قرون بما يفوق أي قطر إسلامي آخر في العصور الوسطى يعود إلى "أسباب مختلفة يمكن إجمالها بقوة الحس الوطني والقومي المعبر والمفوه في مشاعر أبناء مصر وبناتها وكتاباتهم قبل ظهور الشعور الوطني والقومي كما نعرفهما اليوم[٣].

المقريزي أنموذجا:

الشعور بالهوية المصرية نجد أوضح صوره فيما كتبه تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، والذي يعد النموذج الأكثر وضوحا في التعبير عن الهوية المصرية، لذا أخرنا الحديث عنه لكي يكون بمثابة دراسة حالة، فالرجل أخلص لتاريخ مصر وشارك في بلورة السردية التاريخية المصرية، ودافع عنها أمام المؤرخين من الشام والعراق، فنراه يقول في مقدمة كتابه "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط

---

[١] مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب (١٩٩٨م)، ص ١٠.

[٢] الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين، القاهرة- الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٧؛ ص ٢٢٣.

[٣] المدينة والتاريخ والسلطة: المقريزي وكتابه الرائد المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، حوليات إسلامية ٣٥ (٢٠٠١)، ص ٧٧-١٠٠، ص ٨٢.

والآثار": "وكانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامَّتي، وموطن خاصَّتي وعامَّتي، وجوِّي الذي ربِّى جناحي في وكره، وعش مأربي فلا تهوى الأنفس غير ذكره"(١). وهو نص مدهش توقف عنده كل من درس المقريزي، ويرى ناصر الرباط أن المقريزي في هذه المشاعر "يظهر أكثر ما يظهر وطنيًا غيورًا قبل ظهور فكرة الوطنية نفسها، وإن كان في سرده المسجع والسهل قد اختزل كل ما حاولت الوطنية الحديثة بعده بأربعة قرون إذكاءه في نفس المواطن من مفاهيم تهدف لتثبيت إنتمائه لبلده وقومه وتجذيره في تاريخها ولغتها وانتصاراتها وكبواتها"(٢). ومن المعروف أن المقريزي ألف الكتاب ولم يهده إلى أيّ من حكام عصره، فهدفه هو إشباع رغبة علمية نفسية في المقام الأول، الأمر الذي يكسب هذه الكلمات حساسية خاصة ففيها نشعر بعمق وجدانه في التعبير عن معاني وطنية تقترب من مفاهيم الوطنية الحديثة.

ولد المقريزي في القاهرة في حدود سنة ٧٦٦ هجريا/ ١٣٦٦ ميلاديا، وعاش الرجل الذي تعود أصول والده إلى بلاد الشام، في حارة برجوان المطلة على شارع القصبة العظمى المعروف في يومنا هذا باسم شارع المعز، ولم تكن فكرة الوطنية بصيغتها الحديثة معروفة وقتذاك في القرن الرابع عشر الميلادي، لكن رغم ذلك لم ير المقريزي في القاهرة إلا موطنه، وهو ما يتجلى بوضوح في اعتزازه بالانتماء إلى حارة برجوان، فيقول عنها: "ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع الحارات"(٣).

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١: ص٤.
(٢) المدينة والتاريخ والسلطة، ص ٩٢.
(٣) المصدر نفسه، جـ٣: ص ٣١٨.

نمت لدى المقريزي ما يمكن وصفه بالنزعة المصرية التي حولته لمدافع شرس عن تاريخ مصر، لكن هذا لم يخرجه -بأي حال من الأحوال- عن مسار التأريخ الواعي والنقدي لمصر الإسلامية، بل أنه وجه الانتقاد المرير إلى السلطة الحاكمة في عصره بعدما رأى علامات الانهيار وهي تتفاعل على الأرض، فالمقريزي وضع برنامجه الإصلاحي الذي لم يتم تبنيه من قبل السلطة المملوكية التي واصلت رحلة انهيارها ثم سقوطها أمام العثمانيين بعد وفاة المقريزي بخمسة وسبعين عامًا.

ونلاحظ الإحساس بالخصوصية المصرية –حتى لا نقول التعصب للمصرية- عند المقريزي في كتاب (اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) إذ يدافع عن الخلفاء الفاطميين (حكموا مصر **٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٦٩٦- ١١٧١م**)، في مواجهة اتهامات المؤرخين العراقيين والشاميين قائلاً: "ومما يدلك على كثرة الحمل عليهم [أي الفاطميين] أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجدها إلا في كتب المارقة من البغداديين والشاميين، كالمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتاريخ حلب لابن أبي طي، وتاريخ العماد ابن كثير، وكتاب ابن واصل الحموي، وكتاب ابن شداد، وكتاب العماد الأصفهاني، ونحو هؤلاء. أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك البتة.[١]"

ونرى المقريزي ينتصر لمؤرخي مصر الإسلامية على غيرهم فنراه يقول في رده لرواية المؤرخ الموصلي ابن الأثير (ت**٦٣٠هـ/١٢٣٣م**) عن الخليفة الإمام

[١] المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، **٣** أجزاء، الأول تحقيق جمال الدين الشيال، والثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (ع) **٥٨ – ٦٠**؛ جـ**٣**: ص **٣٤٦**.

الفاطمي المعز لدين الله (حكم **٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٣١-٩٧٥م**): "ليس الأمر كما قال ابن الأثير، فقد حكى الفقيه الفاضل المؤرخ أبو الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري في كتاب سيرة المعز -وقد وقفت عليها بخطه رحمه الله- أخبار المعز منذ دخل مصر إلى أن مات يومًا يومًا... وأن ابن زولاق أعرف بأحوال مصر من ابن الأثير خصوصاً المعز، فإنه كان حاضراً ذلك ومشاهداً له، وممن يدخل إليه ويسلم مع الفقهاء عليه، ويروى في هذه السيرة أشياء بالمشاهدة، وأشياء مدَّته بها ثقات الدولة وأكابرها، كما هو مذكور فيها؛ إلا أن ابن الأثير تبع مؤرخي العراق والشام فيما نقلوه، وغير خاف على من تبحر في علم الأخبار كثرة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين وشنيع قولهم فيهم، ومع ذلك فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العليَّة، فكثيراً ما رأيتهم يحكون في تواريخهم من أخبار مصر ما لا يرتضيه جهابذة العلماء، ويرده الحذاق العالمون بأخبار مصر؛ وأهل كل قطر أعرف بأخباره، ومؤرخو مصر أدرى بإجرياته.[١]"

خص المقريزي تاريخ مصر الإسلامية بسلسلة من التواريخ بداية بكتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب)، وهو رسالة صغيرة عن القبائل العربية الموجودة في مصر حتى زمن المؤلف، ثم كتاب (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط) وهو كتاب ضائع، وهو عن تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الإخشيديين (**٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٤- ٩٦٩م**)، ثم كتاب (اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الخلفا)، في تاريخ الفاطميين، ثم كتاب

[١] المقريزي: "اتعاظ الحنفا"، جـ١: ص **٢٣٢**.

(السلوك لمعرفة دول الملوك)[١]، والذي خصصه لتاريخ سلاطين الأيوبيين والمماليك حتى قريب وفاته العام ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، وهناك (المقفى الكبير)[٢]، و(درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة)[٣]، وكلاهما في فن التراجم، إذ خصص المقريزي الكتاب الأول لتراجم للبارزين من أبناء مصر أو ممن وفدوا عليها أو أقاموا بها على مدار التاريخ المعروف حينذاك، وجاء الثاني في تراجم معاصري المقريزي ومعظمهم من المصريين.

إن الوعي المبكر بالذات المصرية عند المقريزي الذي يصل إلى حد نزعة القومية قبل نشأة وتبلور هذا المفهوم في العصر الحديث، جعلت الكثير من المؤرخين المصريين المُحدثين يكيلون المديح للمقريزي ويخلعون عليه الأوصاف التي تؤكد أهميته في التعبير عن الذات المصرية، فهو أصدق المؤرخين المصريين تعبيرا عن "عاطفة قومية" اتجاه مصر فاق فيها كل معاصريه من المؤرخين[٤]، ويصفه آخر بأنه "كان دائمًا مواطنًا مصريًا غيورًا أحب بلده فحرص على أن يكتب تاريخها"[٥]، ونرى المقريزي "مواطنًا مصريًا غيورًا كرس جهده العلمي طوال

---

[١] حقق في ٤ أجزاء، الأول والثاني في ستة أقسام بتحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤-١٩٥٨م، والثالث والرابع في ستة أقسام بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مركز تحقيق التراث ١٩٧٠-١٩٧٣م.

[٢] حققه محمد اليعلاوي، في ٨ أجزاء، بيروت، دار الغرب الإسلامي ط٢ (٢٠٠٦م).

[٣] حقّقه وعلَّق عليه محمود الجليلي، ونشره في أربعة أجزاء، بيروت، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م.

[٤] محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، القاهرة- الهيئة العامة للكتاب (١٩٩٩م)، ص ٨٨.

[٥] محمد محمود الصياد: أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية كما صورها المقريزي، ضمن كتاب (دراسات عن المقريزي)، مجموعة باحثين، القاهرة- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧١)، ص ١١٠.

حياته لكتابة تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولإحياء معالم مسقط رأسه القاهرة وتوضيح مجاهلها وتجديد مآثرها وترجمة أعيانها .[١]"

إن المقريزي يقدم لنا حالة مصرية فريدة لفرد من النخبة لديه وعي بالذات المصرية وتعبير عن نزعة وطنية متقدمة تشعر بأهمية الانتماء إلى الأرض والوطن الذي ولد فيه وعاش ودفن في ترابه. هذا النفس الوطني سبق أي تنظير عن مفاهيم القومية والوطنية والهوية، وهي حالة جديرة بالدراسة للكشف عن نماذج تاريخية تقدم أسس جديدة لرؤية تاريخ الشعوب والحضارات بعيدا عن القولبة التي نعاني منها عندما ننظر إلى التاريخ من منظور المركزية الأوروبية التي تنكر وجود نماذج وأفكار خارج إطار التجربة الأوروبية، لكن التاريخ ممثلا في نموذج المقريزي وغيره من المؤرخين المصريين، يقدم لنا نوافذ جديدة للرؤية وإعادة النظر في النماذج التي عبرت عن وعيها الذاتي بالهوية بأشكال مختلفة ومتنوعة، ما يجعل قراءتنا للماضي والحاضر والمستقبل أكثر عمقا وتفهما لمجريات الأمور.

[١] أيمن فؤاد سيد: المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار؛ لندن- مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (٢٠١٣)، ص٣٩-٤٠.

الخلاصة

نستطيع القول إن هناك سردية تاريخية عن مصر في العصور الإسلامية تبنتها قبيلة المؤرخين المصريين الذين عملوا على تكرارها والإضافة إليها بالعديد من الأدلة التي تؤكد هذه الهوية الإقليمية لمصر والتي تفصلها وتميزها عن غيرها من أقاليم العالم الإسلامي، وذلك عبر أمد طويل ومشاركة عشرات المؤرخين من فترات وحقب متباينة. فالمؤرخون عندما يكتبون تاريخ مصر يعملون على رسم الذاكرة الجماعية للمصريين أو على الأقل للنخب المتعلمة والتي ستتلقى هذه ما يكتبه المؤرخون وستستخدم ما يكتبه المؤرخون في تميز نفسها عن بقية الأقاليم والشعوب في عالم المسلمين، وفي ظني أن المؤرخين نجحوا في هذه المهمة عبر بناء سردية شاملة حول معالم الهوية المصرية المعززة بأسانيد كانت محل إجماع حتى بين غير المصريين، أقصد التفاخر بالآثار المصرية القديمة والمكونات الجغرافية والطبيعية لمصر، فضلا عن تدعيم هذه الرؤية بالتشديد على الاحتفاء القرآني بمصر بصورة لم تكرر مع أي قطر آخر.

ومن الملاحظات المهمة التي نخرج بها من هذا البحث، هو أن المؤرخين المصريين في سعيهم للتأكيد على الهوية المصرية المختلفة عن بقية أقاليم العالم الإسلامي، احترموا التاريخ المصري القديم بصورة تثير الدهشة، إذ كان مصدر فخر لهم في التأكيد على تمايز مصر عن محيطها الجغرافي، والأهم أن الافتخار بتاريخ مصر القديمة، جعلهم يتعاملون بواقعية مع حقيقة أن تاريخ مصر لا يبدأ منذ لحظة الفتح العربي، بل هو تاريخ موغل في القدم ويسبق واقعة الفتح العربي بقرون طويلة وهو أمر أكد عليه كل المؤرخين المصريين.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

- ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الأول تحقيق بيرند راتكه، القاهرة، المعهد الألماني للآثار (١٩٨٢)، والجزء الثاني، تحقيق إدوارد بدين، بيروت، المعهد الألماني للآثار (١٩٩٤م).
- ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى؛ القاهرة- دار الكتب المصرية (٢٠٠٨م).
- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي؛ الرباط، أكاديمية المملكة المغربية (١٩٩٧م).
- ابن تغري بردي: النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١- ١٦، القاهرة، دار الكتب المصرية، (٢٠٠٥ – ٢٠٠٦م).
- ابن حوقل: صورة الأرض، بريل (١٩٣٩م).
- ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٩٢م.
- أبو حامد المقدسي: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة، دار الكتب ١٩٦٩م، (وقد أخطأ محققا الكتاب ونسباه إلى ابن ظهيرة والصواب نسبته إلى أبي حامد المقدسي).
- ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، (١٩٩٩م).
- السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي (١٩٩٨م).
- الشريف محمد الإدريسي: أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام، تحقيق ألريش هارمان، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٩١م.
- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارلس توري، نيوهافن ١٩٢٢م، وأعيد طبعه بالتصوير وصدرت في القاهرة عن مكتبة مدبولي ١٩٩٩م.
- عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة- الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م.

- القاضي صاعد الأندلسي: التعريف بطبقات الأمم، تحقيق غلام رضا جمشيد ثراداوال، طهران، مركز نشر التراث المخطوط (دفتر نشر ميراث مكتوب)؛ طبعة أولى ١٣٧٤هـ.
- ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٩٧م.
- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٧ أجزاء، بيروت، طبعة شارل بلا.
- المقريزي: "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا"، ٣ أجزاء، الأول تحقيق جمال الدين الشيال، والثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (ع) ٥٨ – ٦٠.
- -----: "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، ٤ أجزاء، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن، مركز الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠٠٢ – ٢٠٠٤م.
- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزءا، القاهرة، دار الكتب المصرية (٢٠٠٧م)،
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٨ أجزاء، بيروت، دار صادر (الطبعة الثامنة ٢٠١٠م).

ثانيًا: المراجع

- أيمن فؤاد سيد: "الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين"؛ القاهرة- الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٧.
- حسن حافظ: "نزعة الهوية عند المؤرخين المصريين في العصور الوسطى؛ ضمن كتاب (هوية مصر: الأبعاد والتحولات)؛ تحرير ناصر أحمد إبراهيم؛ القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٢٣)؛ ص ٣٤١- ٣٧٠.
- حسن حنفي: الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة (٢٠١٢م).
- عفيف البوني: في الهوية القومية العربية، ضمن كتاب الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية (٢٠١٣م).
- عمرو عبد العزيز منير: "الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين"، القاهرة- دار عين ٢٠١١.
- محمد عبد الله عنان: "مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري"، القاهرة- الهيئة العامة للكتاب (١٩٩٩م).
----------:"مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية"؛ القاهرة- الهيئة العامة للكتاب (١٩٩٨م).

- محمد كامل حسين: "في أدب مصر الإسلامية"؛ القاهرة- دار الفكر العربي؛ د.ت.
- ناصر الرباط: المدينة والتاريخ والسلطة: المقريزي وكتابه الرائد المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، حوليات إسلامية **٣٥ (٢٠٠١)**.
- نديم البيطار: حدود الهوية القومية: نقد عام، بيروت، دار الوحدة **(١٩٨٢م)**.

المراجع الأجنبية:

- Ulrich Haarmann:"Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt", Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 43, no.1 (1980):55.